الفصل الأول

التاريخ خير شاهد

obeikan.com

obeikandl.com

التاريخ خير شاهد

يقـول الحق تبارك وتعـالى في محكم آياتـه: ﴿لقد كـان لكم في قصصهم عبرة﴾. (يـوسف/ ١١١)، ومعنى ذلك أن قصـص السـابقين علينـا نحن المسلمين، والتي أورد اللـه كثيراً منهـا في سـور عـديـدة من القـرآن الكـريم، ينبغي علينـا أن نتلمس الاستفادة منها قدر طاقتنـا، وأن نقف منها موقف المتعلم الذي يبغي تحصيل الفائدة لنفسه وللأجيال من بعده.

وبجانب ما ورد في القرآن العظيم من قصص السـابقين هناك ما سجلته الشعوب عن نفسهـا في سجلات خـاصـة بها على شكل ألواحٍ مكتـوبـة، أو على صورة آثـارٍ تحكى مـا كان يجري على أراضيهـا من أحـداث، أو على هيئة مـا تـداوله القصـاص والشعـراء من قصص وحكـايات وأشعـار، وكلهـا حين تجمع مع بعضهـا، أو حين توضع بجـوار بعضها البعض تظهر لنـا "بانوراما" هائلة للجنس البشري، بـاتساع المعمورة وعبر مناطقها وأقاليمها المختلفة والمتنوعة.

وهنـاك علماء أوتـوا القـدرة على الغوص في أعماق التـاريخ، وعلى شرح أحـداثـه وربطها بعضها ببعض في فلسفـة هادفة تبتغي تعريف الأجيـال الحاضرة. . والقادمة بماضي البشرية وما جـرى لها في أنحاء متفرقة من العـالم، وهم قلة – أي هؤلاء العلماء – ولكنهم متميزون منهم "أرنـولد توينبـي"، "ول. ديورانت" على وجه التحـديد. الأول كتب لنا "دراسة في التـاريخ" والثاني أبدع في "قصة الحضـارة". يقول العقاد "رحمه الله، عن "تـوينبي" أنه "بدأ تـأليف كتابه في سنـة ألف وتسعمائة وإحدى وعشرين (ميلاديـة بطبيعة الحال)، بعـد نشوب الحرب العـالمية الأولى بسنتين، وأتمه وأصـدر آخر أجـزائه قبل ختـام السنـة الماضية (كـان كـلام العقاد عـام ١٩٥٥م)،

فانقضى عليه في تأليفه ثلث قرن كامل، وتم الكتاب كله في عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن سبعة آلاف صفحة، ولم ينته من أجزائه الأخيرة حتى بدا له أن يعيد النظر في بعض الآراء التي ظهرت في الأجزاء الأولى، ولكن المهمة شاقة، والتكاليف كثيرة، فتبرع له بعض المعاهد العلمية بالنفقة اللازمة للسياحة في مواطن الحضارات الدائرة، والإقامة حيث تلزم الإقامة زمناً بين آثار المكسيك والشرقيْن الأقصى والأدنى، ولا تنتهي هذه السياحات التاريخية قبل سنتين من ظهور آخر جزء في الكتاب.

مجهود من مجهودات الجبابرة، وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الإنساني، من مبدئه إلى عصره الحاضر، أو يؤهله لاستخراج الوجهة المرتسمة من حوادث التاريخ، ثم استخراج الفكرة التي تتجلى فيه، عصراً بعد عصر، وحضارة بعد حضارة، ونزاعاً بعد نزاع، وسلاماً بعد سلام، وهذا هو الذي سميناه تلخيص التاريخ الإنساني في سطر أو سطرين، فما هي الفكرة التي يلخصها السطر والسطران في رأي هذا المؤرخ الكبير. ؟ ما هو الرأي الذي يراه في تاريخ الإنسانية أحق علماء التاريخ بإبداء هذا الرأي في القرن العشرين. . ؟

خلاصة هذا الرأي سطر واحد هو أن "التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله" هذا هو الرأي الإجمالي الذي شرحه المؤرخ الكبير في سبعة آلاف صفحة، وقرر في ذلك الشرح أن تواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق لا معنى لها إذا لم يكن معناها هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله.[1]

وعنده - أي عند توينبي - أن كل أمة، وكل حضارة، وكل عقيدة إنما تأتي لترفع

---

(١) عباس محمود العقاد: الإسلام والحضارة الإنسانية، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا، (بدون تاريخ)، ص ص ٧٥ـ٧٦.

في الطريق مصباحاً صغيراً، أو كبيراً، ينير الطريق، وينير ساحة الكون كله للعالم بحقائق الوجود، أو للعلم بحقيقة الحقائق، وهي مصدر الخلق والتدبير في الوجود.

ومن تقريرات المؤرخ الكبير أن الإنسان قد يصطنع الأعمال والحرف، ويخلق العلوم والمعارف، ولكنه لا يخلق عقيدته الدينية، بل تأتيه العقيدة مفروضة على سريرته وشعوره، قابلة للبحث في بعض جوانبها، غير قابلة لشيء سوى التسليم في جوانبها الكبرى، ولهذا تسخِّره العقيدة. ولا يسخرها هو كما يهوى، وإن خيّل إليه أنه يعمل في تسخيرها بهواه.

وضرب لنا المؤرخ الكبيرالمثل بعقيدة الإسلام: أراد الفرس الذين دخلوا الإسلام أن يستخدموها في إحياء القومية الفارسية فاستخدمتهم هي في توطيدها ودراسة معارفها، وجاء المغول إلى بلادها من أقصى الشرق ليقيموا سلطتهم على أركانها، فأصبحوا حراساً لتلك الأركان، ولا يتأتى تسخير عقيدة ما إلا إذا غلبتها عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل في تاريخ الإنسانية، فليس أقوى من الإيمان على تسيير الإنسان، والارتقاء به على معارج الحضارة في طريقه إلى الله.

وما كتبه "العقاد" عن "توينبي" نعتقد أنه ينطبق إلى حد كبير على أحد العلماء العباقرة، أو الجبابرة، الذين لديهم القدرة على العطاء، والصبر على البحث، وهو "ول. ديورانت" مؤلف الموسوعة الهائلة "قصة الحضارة" والتي طوّف خلالها في كل ركن من أركان الدنيا، وعبر عصور التاريخ البشرى كلها، يبحث في تواريخ الشعوب، ويدرس جماعاتها، ويقارن حضاراتها، يحاول الوقوف على أسباب نهوضها، كما يتعمق في عوامل ضعفها وانحلالها، يقدر المخترعات التي توصلت إليها، سواء في المجالات المادية، وهو ما اصطلحنا عليه هذه الأيام بالمنتجات التكنولوجية، أو في مجالات الأدب والشعر والمسرح والرياضة، وسائر الفنون الأخرى، فهذه كلها منتجات حضارية، وهي تختلف من شعب إلى آخر، ومن أمة

إلى أخرى، فنجده يتحدث عن الأدب، واللغة، كما يتحدث عن نظم الحكم، وعن الأسرة، يتحدث عن الدين، كما يتحدث عن المنحرفين بعيداً عن الدين، وحتى عن الذين انحرفوا داخل معابد يفترض أنها أقيمت باسم الدين[1]. . !!

إن هذا العالم المدقق لم يفته أن الحضارات تقوم وتنشأ على أكتاف الجنسين. . الذكر والأنثى، ولذا نجده لا يترك أمة من الأمم، أو شعباً من الشعوب إلا وقد بحث في النوعين، في علاقتهما ببعضهما، وفي موقعهما من الأحداث في عصرهما، في تكاملهما، وفي تنافرهما، في اضطهاد طرف (غالباً هو طرف الرجال) للطرف الآخر (هو بطبيعة الحال طرف النساء)، في التسلط والتجبر، في الخضوع والخنوع، في الصراع، وفي التحدى والسقوط ومحاولات النهوض. .

ومعياره الذي استعمله في قياسه لحضارات الشعوب ونهوضها هو مدى توافق الجنسين معاً، ومدى استجابتهما لبعضهما، واحترامهما بعضهما البعض الآخر، فالحضارة دوماً في قمة مجدها عندما يتعاونان، وحينما يوضع كل منهما في موضعه الصحيح، وحينما تنحل الحضارة وتهبط أو حينما تؤذن بانحلال وهبوط نجد أن أحد أطراف المعادلة قد جار على الطرف الآخر وهضم حقوقه، بل وضيّعها، ومن هنا فلا يمكن لتلك الحضارة أن تحلّق في عوالم المتقدمين. . ببساطة لأنها لا تستطيع أن تطير بجناح واحد. ولعلنا نقوم معاً بسياحة فكرية في أعمال هذا المفكر خلال صفحات هذا الفصل عن المرأة. . عبر التاريخ. . ووسط الحضارات.

يقول صاحب " قصة الحضارة " ول. ديورانت في بدايات كتاباته عن الإنسان البدائي، قبل التاريخ، وقبل نشوء الحضارات وبعد أن يعقد عدة مقارنات عن الطير والحيوان، يقول عن الإنسان " والقاعدة العامة في عالم الإنسان من أول نشأته

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٧٦ ـ ٧٧.

هي أن متوسط المواليد ومتوسط الوفيات يهبطان معاً كلما ازدادت المدنية صعوداً. إن عناية الأسرة بأبنائها إذا ما حسنت، مكنت النشء من مدة أطول يقيمونها تحت جناح الأسرة، فيكمل تدريبهم ونموهم إلى درجة أكبر، قبل أن يُقذف بهم ليعتمدوا على أنفسهم، وكذلك قلة المواليد تصرف المجهود البشري إلى أوجه أخرى من النشاط بدل استنفاده كله في عملية النسل.

ولما كان يعهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات، فقد كان تنظيم الأسرة في أول أمرها (ما استطعنا أن ننفذ بأبصارنا خلال ضباب التاريخ) قائماً على أساس أن منزلة الرجل في الأسرة كانت تافهة وعارضة، بينما مهمة الأم أساسية لا تعلوها مهمة أخرى". (١)

وهكذا كانت المرأة في بداية عهدها على الأرض، وقبل عصور التاريخ المعروفة لنا، كانت تعيش على فطرتها السوية التي خلقها الله عليها، فكانت مشاركة للرجل في حياته، وفي عمله، وأكثر من ذلك أنها اختصت بأهم وظيفة يمكن أن يعهد إليها القيام بها، ألا وهي تربية الأبناء، والعناية بهم حتى يخرجوا إلى الحياة أصحاء أقوياء، ولعمرى إنه مطلب غاية في الأهمية في عصرنا الذي نعيشه.

حضارة المصريين القدماء:

وينتقل بنا المؤرخ الكبير خطوة في أعماق التاريخ ليصل إلى حضارة المصريين القدماء، والتي احتلت فيها المرأة مكانة مرموقة، وصلت في مفهوم المصريين آنذاك إلى درجة الألوهية، والعياذ بالله، مثلها في ذلك مثل الرجل، " ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالاً متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا في صورة عظيمة باسلة،

---

(١) ول. ديورانت: قصة الحضارة. . نشأة الحضارة. . الشرق الأدنى، ترجمة زكي نجيب محمود، جامعة الدول العربية ـ الإدارة الثقافية، القاهرة، ط٣، (الجزآن ١، ٢)، ص ص ٥٥ ـ ٥٦.

ولكنهم خلقـوا من عظـام وعضـلات ولحم ودم، يجوعـون ويأكلـون، ويظمأون ويشربون، ويحسون ويتزوجون، ويكرهون ويقتلون، ويشيخون ويموتون " . ! !(١)

ومما كان معـروفاً عند أصحاب هذه الحضارة أن الـرجل كان من الممكن أن يتزوج أختـه، ولا حرج عليهما في ذلك، والـدليل على ذلك أسطورة « إيـزيس » الشهيرة في التاريخ المصري القديم والتي كانـت أخت " أوزير " وزوجته في نفس الوقت. (٢)، ويقول " ديـورانت " إن " إيزيس " كانت من بعض الوجـوه أجل من " أوزير " قدراً، لأنها قهـرت الموت بالحب، شأنها في ذلـك شأن النساء بـوجه عام، كـذلك لم يكن فضلهـا مقصـوراً على أرض النهـر التي أخصبهـا مسُّ " أوزيـر " (النيل) فأغنت مصر كلها بإنتاجها. . . . ولقد كـانت هي التي أوجدت ذلك الحنو الأموي الذي يحيط بالحياة الجديرة حتى يتم نمـوها، مهما كلفها من جهد وعناء. . . وكانت ترمـز - في مصر - إلى ما للعنصر النسوي من أسبقية وأفضليـة واستقلال في الخلق، وفي الميراث، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة في حرث الأرض. (٣)

ويبين الكاتـب المؤرخ للحضارات الإنسـانية أن هـذه الأساطير المصريـة أثّرت في الأجيال الأولى من المسيحيين حتى إنهم كانوا أحياناً يصلّون أمام تمثال " إيزيس " الـذي يصورهـا وهي تـرضع طفلها " حـورس " ، وكـانوا يـرون فيهـا صورة أخـرى للأسطورة القـديمة النبيلة، أسطورة المرأة (أي العنصر النسـوي) الخالقة لكل شيء، والتي تصبح آخر الأمر أم الإله. (٤)

وننتقل مع الـرجل المؤرخ خطـوة أخـرى إلى عصر "بـوذا " وتعـاليمـه والتي سبق

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٤) المرجع السابق.

عصر عيسى، عليه السلام (تعاليم بوذا، أو " سلاسل القانون " أعدت لتعرض على المجلس البوذي الذي انعقد عام ٢٤١ قبل الميلاد، وقد وافق هذا المجلس على أن ما في هذه الوثائق هو تعاليم بوذا الذي عاش في الهند بغير تحريف). ونقرأ عن " بوذا " أنه لم يكن يطمئن نفساً في حضرة النساء وقد تردد كثيراً قبل أن يسمح لهن بالانضمام إلى الطائفة البوذية، ولقد سأله تلميذه المقرب " أناندا " ذات يوم:

- كيف ينبغي لنا يا مولاي أن نسلك أمام النساء..؟
- كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا..!!
- لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن..؟
- لا تتحدث إليهن يا أناندا..!!
- لكن إذا ما تحدثن إلينا يا مولاي فماذا نصنع..؟
- كن منهن على حذر تام يا أناندا..!!(١)

وليس هناك أدل على تجاهل المرأة وإهمال شأنها من هذه المحادثة، وهذه الإجابات الواضحة القاطعة التي لا تحتاج إلى تفسير، ولا شك أن أتباع " بوذا " قد اتبعوا تعاليمه، ونفذوا وصاياه فيما يختص بالمرأة، وقد كان هؤلاء الأتباع كثيرين فيما يرويه التاريخ.

حضارة الهند:

ويعقد " ول. ديورانت " فصلاً كاملاً في كتابته عن حضارة الهند تحت عنوان " الأخلاق والزواج " يقدم لنا فيه معلومات مذهلة عن الانحطاط الذي وصل إليه الكهنة في معابد جنوب الهند، حيث يقول: " وكان الزنا في الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد، ففي الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهواني تشبعها له من كن

---

(١) ول. ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الثالث، الهند وجيرانها، ص٧٧.

يطلق عليهن " خادمات الله " ، طائعات في ذلك أوامر السماء، وما خادمات الله - أو " دالاداس " كما يسمونهن - إلا العاهرات، وفي كل معبد في " تامل " مجموعة من النساء المقدسات " اللائي كن يستخدمهن المعبد أول الأمر في الرقص والغناء أمام الأوثان، ثم من الجائز أن يستخدمن بعد ذلك في إمتاع الكهنة البراهمة، وبعض هؤلاء النسوة - فيما يظهر - قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكهانها، وبعضهن الآخر قد وسّع من نطاق خدماته بحيث يشمل كل من يدفع أجراً لمتعته، على شريطة أن يدفعن لرجال الدين جزءً من كسبهن عن هذا الطريق(!!)[1]

ومن هذا الكلام السابق يتبين للقاريء مدى الانحدار القيمي والأخلاقي الذي وصل إليه رجال الدين، أو من كانوا يدعون كذلك في هذا الركن من العالم، كما يتبين كذلك مدى المهانة التي انزلقت إليها مكانة المرأة عندهم، فهي فقط للاستمتاع الجسدي . . في المعابد (!!)، وهي كذلك لجمع شيء من الأموال لمن أسموا أنفسهم رجال دين، ويالها من وظيفة، ويالله من انحلال . . !!

الحضارة اليابانية:

ولا زلنا مع الرجل الذي أرخ لقصة الحضارة في العالم والذي استغرقه الوقت في كتابتها عشرات الأعوام ولا عجب، فلقد اشتملت على ستة عشر مجلداً ضخماً، ضمت اثنين وثلاثين جزءً، وزادت صفحاتها على ستة آلاف . . . ففي مجلده الخامس كتب عن الحضارة اليابانية فيما يختص بالمرأة ما يلي : في اليابان الأسرة هي المصدر الحقيقي للنظم الاجتماعية . . . والسلطة كلها تتجمع في يد الأب، ولقد كانت سلطة الوالد استبدادية لأن الأسرة كانت هي وحدة الإنتاج في عالم الاقتصاد، كما كانت وحدة النظام الاجتماعي، ومن هنا فإن النجاح أو الفشل، بل الحياة أو

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

الموت، لم يكن يخص فرداً بذاته ولكن كان يصيب الأسرة كلها، ومن هنا كان لابد للوالد من الضبط. ومن السيطرة، وكانت سلطة الوالد هذه بلا حدود، حتى إنه كان يمكن أن يقتل ابنه أو ابنته.. بل وأن يبيع أبناءه وبناته في سوق النخاسة أو سوق الدعارة، وكان في مقدوره أن يطلق امرأته بكلمة واحدة.(١)

وإذا ما كان الرجل من عامة الشعب، كان الأغلب أن يقتصر على زوجة واحدة، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات، ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آناً بعد آن.(٢)

ويركز الرجل حديثه على وضع المرأة في اليابان في عهودها الأولى فيقول: " وكانت منزلة المرأة في اليابان - كما هي الحال في الصين - أعلى في مراحل المدنية الأولى منها في المراحل المتأخرة، فنرى نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطوري، ولقد لعبت المرأة في طوكيو دوراً هاماً، بل لعبت الدور الأول في حياة الأمة الاجتماعية والأدبية، وفي ذلك العهد الذهبي للثقافة اليابانية - لو جاز لنا أن نجازف بالرأي في مثل هذه النواحي الغامضة - سبق الزوجات أزواجهن في عالم الزنا (!!!) بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال.(٣)!!

وانحدرت مكانة المرأة أكثر.. وأكثر... حين انتشرت نظرية أهل الصين في إخضاع الرجل للمرأة، حيث انتشر النظام الإقطاعي الحربي، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلا يتعاقبان على نحو طبيعي يسجله التاريخ، فأصبح المجتمع يسوده الذكور، وأذعنت النساء " للطاعات الثلاث " - الوالد والزوج والابن - وأوشك الناس ألا يضيّعوا جهدهم في تعليم النساء.. وطولب النساء بالأمانة

---

(١) ول. ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الخامس، (اليابان)، ص ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) ول. ديورانت، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٦٣.

الزوجية يتهددهن في ذلك عقوبة الإعدام، فإذا وجد الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا، كان من حقه أن يقتلها مع عشيقها فوراً. . . وقد نصح الفيلسوف "إكن" للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت في حديثها من حيث ارتفاع الصوت، أو طول الكلام، أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق، وحشي الطبع، فينبغي على الزوجة - في رأى "إكن" - أن تضاعف له الرحمة والدعة، وفي ظل هذا التدريب الشديد، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن، وأكثرهن طاعة.(١)

حضارة اليونان:

ونصل إلى حضارة اليونان. . والتي عاشت نهضة حضارية كبرى اشتهرت فيما عرف بعصرها الذهبي، خاصة في "أثينا" والتي كانت تمارس فيها أنواع من الديموقراطية والحرية لم تعرفها كثير من الشعوب، كما سنت فيها قوانين حددت العلاقات بين طبقات المجتمع المختلفة، ولكن عابها أنها كانت لصالح طبقة دون أخرى، مما أدى إلى قيام الصراع بين تلك الطبقات(٢) وفي صفحات عديدة يحدثنا مؤرخ الحضارة عن شعب اليونان على أن أفراده رغم تقدمهم وقوانينهم وعلومهم إلا أن الجانب الأخلاقي لديهم لم يكن على خير ما يرام، فقد كان الغش والفساد والرشوة منتشرة بينهم بشكل كبير.(٣)

ونصل إلى ما يهمنا في الموضوع، وهو مكانة المرأة عندهم، وعلاقتها بالرجل، فنجد أن رجالها والنساء - في أثينا - يعترفون جميعاً بأن العلاقات الجنسية هي أساس الحب، وكانت القيود المفروضة على الرجال واهية وكانوا يطلقون العنان لغرائزهم الجنسية في الأعياد الكبرى التي هي دينية (!!!) في أصلها، ويقولون إن ذلك ييسر

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣.

(٢) ول. ديورانت: قصة الحضارة، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، المجلد السابع، ص٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٩٣ - ٩٧.

لهم فيما بقى من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة[1] . . !! بل وكانت أثينا تعترف بالبغاء رسمياً، وتفرض ضريبة على ممارسيه . [2]

وتنحدر الحضارة اليونانية أكثر نحو مستنقع الرذيلة حين نقرأ " وأصبح العهر في أثينا، كما أصبح في معظم مدن اليونان، مهنة كثيرة السبل ميسرة أمام المرأة ذات الكفاية (!!) للترقي في هذه المهنة، كما كانت ميسرة للترقي في غيرها من المهن في تلك المدينة . . وكانت هناك مواخير، وكان هناك تدريب (!!) على الفجور، وكان هناك بيع للشرف، واستئجار له . . بالأسبوع . . أو بالشهر . . وحتى بالعام . . !! وكانت العاهرات طبقات . . ولكل طبقة ثمن . . . !! وهذا هو " العصر الذهبي " لليونان . . !!!

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له فضلاً عن زوجته خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج، وفي ذلك يقول دستين : « إنا نتخذ العاهرات للذة، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين، ويعنين ببيوتنا عناية تنطوي على الأمانة والإخلاص . وفي هذه الجملة الواحدة العجيبة جمع دستين رأى اليونان في المرأة إبان عصرهم الذهبي، هكذا علق " ول . ديورانت " . [3]

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته، وكان في وسعه أن يطردها من بيته متى جاء، من غير أن يبدي لذلك سبباً، وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها، لأن الغرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء، أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يجيز، والرأي العام يحبذ، أن يستعين الزوج في هذه المهمة

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق، ص١١٤ .

بأحد أقربائه، وكان الطفل الذي يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه،[1] وكان الطلاق يباح إذا تراضى الطرفان، وإذا افترقا بقى الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنا عليه (فلا حضانة للأم كما هو الحال في الإسلام)، وجملة القول، حسب رأي ديورانت، أن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال، وهي تمثل نكوصاً عن المستوى الذي وصل إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر "هومر".[2]

ومن الغريب أن النساء، اسما وجسما، قد اختفين من الإسهام في صناعة الحضارة اليونانية، في آخر عصرها، حتى كتب "فلوطارخس" قول "توكيديدز": "يجب أن يحبس اسم السيدة المصونة في البيت، كما يحبس فيه جسمها. !![3]

ونتيجة لحبس الزوجة في المنزل، وإبعادها عن الحياة العامة، تدهورت مكانتها في المجتمع اليوناني بشكل خطير، حتى كتب "صولون" في شرائعه" إن العمل الذي يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً. (!!) ولعلنا لازلنا نذكر آراء "بوذا" في الهند عن المرأة كذلك، وكان الزوج إذا مات لا ترث المرأة (الزوجة) من ماله شيئاً(!!)[4]، وسوف نرى شريعة الإسلام العظيم في هذا المجال بعد ذلك إن شاء الله، وكيف رفعت المرأة مكاناً علياً.

الحضارة الرومانية:

بعد أن يعرض المؤلف لنهضة روما وسيادتها وانتصاراتها يغوص في أعماق المجتمع الروماني فيحدثنا عن الأسرة، وهو ما يهمنا من هذا السفر الضخم والعظيم فيقول: إن

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص١١٦.

(٣) المرجع السابق، ص١١٧.

(٤) المرجع السابق، ص١١٨.

سلطة الأب كانت مطلقة من كل القيود. . . فكان هو وحده صاحب الحقوق القانونية في عهد الجمهورية الأولى، كما كان هو وحده الذي من حقه أن يشتري العقار، ويحتفظ به أو يبيعه، وأن يتعاقد باسمه، بل إن بائنة زوجته كانت ملكاً خاصاً به، وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه هو (!!) ليحاكمها. . بل وليعاقبها بنفسه، وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته، أو حتى سرقت مفاتيح خزائن خمره. . !!

وحسب قانون "روما" لم يكن للمرأة أن تظهر في المحكمة، حتى ولو كانت شاهدة، وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأي حق لها في ماله، وكان له - إذا شاء - أن يحرمها من أن ترث شيئاً من ماله. وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل، هو أبوها أو أخوها أو زوجها، أو حتى ابنها، أو وصي عليها،[1] وهي لا تستطيع أن تتصرف في مالها، أو حتى تتزوج بغير رضاه،[2] ولاشك أن هذه المكانة التي انحدرت إليها المرأة في الحضارة الرومانية أبعد ما تكون عن كرامة المرأة، وعن احترامها.

وفي المجلد العاشر يحدثنا "ول. ديورانت" عما أسماه بالمرأة الجديدة التي ظهرت وبرزت في المجتمع الروماني نتيجة ازدياد الثروة، وفساد الأخلاق، والانحلال الخلقي، وانفصام رابطة الزواج، وحيث "ظلت الدعارة منتشرة في البلاد، وحيث زاد عدد المواخير والحانات التي كانت تأوي العاهرات، كما أصبح الزنا من الأمور العادية، وألفه الناس بحيث لم يعد يستلفت أنظارهم وكان الأزواج يختارون زوجاتهم، والنساء يخترن أزواجهن ليحصلوا على أكبر البائنات، أو على صفات

---

(١) ول. ديورانت: قصة الحضارة. . قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، المجلد التاسع، ترجمة محمد بدران، ط٣، ١٩٧٢م، ص١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٠.

يفـدن منها جـاها ومـالاً.[1] ولقـد أغضبت هذه الحال واحـداً من مفكريهم هـو " كاتـو" فوصفها وصفـاً لاذعاً قائلاً: " إن الإمبراطـورية أصبحت توكيـلاً لإدارة شؤون الزواج " ،[2] وذلك حين كثرت زيجات المنفعة والزيجات السياسية.

ويفسر الباحث في الحضـارات، والمؤرخ المدقق أنه كان من أسبـاب انحراف المرأة الظـروف السيئـة التي فـرضها عليهـا المجتمع الـرومـاني، ومن هنـا استخفت بقسم الـزواج، ووجـدت في الصـلات الجنسيـة غير المشروعـة الحب والعطف.[3] ولقد حطمت الحريـة الجديدة التي سـادت المجتمع الـروماني سلطـة الأب، بل وحطمت كيان الأسرة ذاتـه، وأصبحت النساء يتمتعن بمثل حـرية الـرجال، بل وصرن يطلقن أزواجهن.. تماماً كما يفعل الـرجال، والواقـع أن كل هذه المقدمـات، أي الانحلال الأخلاقي، والتفسخ الأسري، وغياب الضـوابط والمعايير، كانت كلها مؤذنـة بانهيار تلك الحضارة، وبتصدع بنائها، وجميعنـا نعلم أن الإسلام كان قد سطعت شمسه في جزيرة العرب، وكان حتماً أن تتصادم الحضـارتان، وكان حتماً كذلك أن يكون النصر للأصلح والأقوم.

جزيـرة العـرب:

ويحدثنـا عنهـا "ول. ديـورانت " في المجلـدين الثـالث عشر والـرابع عشر وقـد أعطاهما عنـواناً دالا.. هو عصر الإيمان.. ويبدأه بظهـور الرسول، صلى اللـه عليه وسلم، في مكـة، وبعثتـه، ثم هجرتـه إلى المدينـة المنورة، وانتصـاره على أعـدائه من الكفار والمشركين، يقول الرجل عن سيد البشر أجمعين، فيما يتعلق بموضوع "المرأة " وكان تعـدد الزوجات في نظـر النبي، صلى الله عليـه وسلم، أمراً عاديـاً مسلماً به لا

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧٩.

غبار عليه، ولـذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير، لا يبغي بـه إشباع الشهوة الجنسية. . ولقد كانت بعض زيجاتـه من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه، وكان بعضها زيجات دبلوماسية.(١)

ويبين المؤلف تقشف النبي، صلى الله عليـه وسلم، في بيوته، مع زوجـاته، فلم يكن ينفق على أسرتـه إلا القليل من المال، رغم ما كـان يرد إليـه من الفيء وغيره من الموارد، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل القليل.(٢)

ومباشرة يبين "ول. ديـورانت" أن الإسـلام قد رفع مكـانة المرأة في بـلاد العرب، وإن لم يـر عيباً في خضـوعها للـرجل. . . وهو يحرم على النسـاء ولاية الحكم، لكنـه يسمح لهن بحضـور الصـلاة في المسـاجد. . . وقضى القـرآن على عـادة وأد البنـات (سورة الإسراء/ ٣١)، كما سوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقهـا أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بمالها ومكـاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مـالها كما تشاء (النساء/ ٤، ٣٢) وقضى على ما تعـوَّد العرب عليه في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع.(٣)

كما أن الإسـلام منع زواج النسـاء بغير إرادتهن. وفي القرآن آيـة يأخـذهـا بعضهم حجة على حجب النسـاء وهي ﴿ **وقرن في بيـوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ (الأحزاب / ٣٣). ويـؤكد صاحب قصة الحضـارة الذكي والفاهم أن هـذه الآية إنما أنـزلت لتؤكـد النهي عن التبرج، وقد طلب النبي من زوجـاته بنـاء على أوامر القـرآن الكريم ألا يكلمن الـرجال إلا من وراء حجاب، وفيما عـدا ذلك فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن.(٤)

---

(١) ول. ديوانت: قصة الحضارة. . عصر الإيمان، (المجلدان ١٣، ١٤)، ترجمة محمد بدران، ص٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص٦٠.

(٤) المرجع السابق، ص ص ٦٠ـ٦١.

هـذا ولقد حتم القـرآن الاستعفاف قبل الـزواج (وبعده بطبيعـة الحال)، وأوصى النبي، صلى اللـه عليه وسلم، بـالصيـام للاستعـانـة على هذا الاستعفـاف ويشترط الـدين الإسلامي رضـاء الخطيبين لإتمام عقـد الزواج، فإذا تم هـذا الـرضاء بشهـادة الشهود العـدول، وأدى العريس مهر عـروسه، كـان ذلك كافياً لإتمام العقـد، سواء رضى بذلك آبـاء العروسين أو لم يرضـوا، وعدم الزواج في الإسلام، كما هـو في الدين اليهودي، إثم، والزواج فيه فريضة محببة إلى الله (النور -٣٢)..

وأجـاز الإسـلام تعدد الـزوجـات بحيث لا يـزدن على أربع.[١] هـذا ولقد حـرم الإسـلام التسري، كما حرم الـزنـا أشد التحـريم، كما نهى عن رمي المحصنـات... ويقول الكاتب في لمحة ذكية "وقد قل الاتهام بـالزنا بعد النهي عن ذلك (النور/ ٤). وأباح الإسلام الطـلاق للرجل كما أباحه التلمود، وللمـرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (البقرة-٢٢٩) لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يشجع عليه.[٢]

والقـرآن نفسه يحض على عـدم قطع العـلاقـة الزوجيـة إلا بعـد أن تبذل الجهـود للإصـلاح بين الزوجين ﴿**وإن خفتم شقـاق بينهما فابعثوا حكماً من أهلـه وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما**﴾. (النساء/ ٣٥). ولا يصلح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل (هكذا).[٣]

ويختم بـاحث الحضـارات الموسوعي حـديثـه عن المرأة في الإسـلام فيلمس الرقـة والعطف في معاملة الـرسول، صلى الله عليه وسلم، لزوجاتـه "وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبـي وبعض أزواجه، كما يحدث عند غيره مـن المسلمين، ولكنه

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٦٣.

كان على الـدوام يعزهن، ويظهـر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات مـا يليق بهن من عواطف طيبة.(١)

ويـروى عنـه، صلى اللـه عليـه وسلم، أنـه قـال إن المرأة الصـالحة أثمن شيء في العالم. ويذكِّر الله الناس في القرآن مـرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً، وأرضعنهم أربعة وعشرين أوثـلاثين شهراً **﴿ووصينا الإنسان بـوالديه إحسانـاً حملته أمه كرهـاً ووضعته كرها، وحملـه وفصاله ثلاثـون شهراً﴾**. (الأحقاف/ ١٥) ويروى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " الجنة تحت أقدام الأمهات ".(٢)

ولعلنـا نحن المسلمين نتفق على أن هـذا العـلامة قـد فهم، إلى حـد بعيـد، روح الإسـلام في التعامل مع المرأة، ممـا رفع من مكانتهـا، وأعلى قدرهـا، كما لم يحدث من قبل في حضـارة من حضارات العـالم، بـاتساع الكـرة الأرضيـة، وعلى مدار التـاريخ البشري كله.

عصر النهضة:

وفي الجزء رقم (٢١) في قصـة الحضـارة، والـذي عنونـه "ديـورانت" هـو والجزء (٢٢) بعنوان "النهضة والإصلاح الـديني" نجده يتحدث عن المرأة في ذلك العصر، فيقول إن شهـوة العري كـانت تتملك النسـاء أحياناً إلى حـد تخرج فيه عـن المعقول، حتى لقد قال « ساتش " إن بعض النسـاء يتعرين تماماً إذا خلعن أحذيتهن.. !!(٣) ولكنه يذكـر أن المرأة اهتمت بالتعليم وبالفنون وبـالملابس المزركشة، والخلاصة " أن النهضة الإيطالية، كالاستنارة الفـرنسية، قامت على أكتاف الجنسين، فكانت النساء يرتدن كل ميدان من ميادين الحياة».(٤)

---

(١) المرجع السابق، ص٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤.

(٣) ول. ديورانت: قصة الحضارة.. النهضة والإصلاح الديني (المجلدان ١١، ١٢) ترجمة محمد بدران، ص١٠٥.

(٤) المرجع السابق، ص ص١٠٦ـ١٠٨.

وبعد . .

فهـذه لمحات من هـذا السفر العظيم الضخـامـة (٣٢ جزءاً) وقعت في عـدد من الصفحات وصل أكثر من ستة آلاف صفحة، وتـوفر على ترجمة أجزائه عدد من كبار الأسـاتذة، فما كـان بمستطـاع شخص واحد أن يقـوم بهذا العمل الضخم منفـرداً، وإلا لاستغـرقـه سنـوات وسنـوات، كما استغـرق المؤلف، وشتـان مـا بين التأليف والترجمة . . !!

ولضخـامة الموضـوع . . قصـة الحضارة الإنسـانيـة، قسم " ديورانت أجـزاءه على منـاطق العالم المختلفـة وأقـاليمه، وأعطى كل حضـارة حقهـا من البحث والدراسـة وعمق التفكير، وكـان لابـد أن يضع لها عنـوانـاً مستقـلاً، كما سبق وبيّنـا ذلك عنـد الاستشهـاد من هذا السفـر الضخم، وقـد وفق الرجـل أيما توفيق حين وضع لجزيـرة العـرب عنوانـاً دالا . . هـو " عصر الإيمان " ، وقد ثبت أن الإيمان ليس كمثلـه شيء فيما يفعله في النفـوس التي زكاهـا ورفعها بحيث أخـرجت العربي الجاهل الـذي كان يحارب جيرانه لأربعين سنـة لأتفه الأسباب، رفعته لتجعل منـه إنساناً جديـداً تماماً . إنسـان صانع للحضـارة مـؤسس لقيمها . ويكفي أن الـدين الإسـلامي العظيم، في خلال أقل من ربع قرن، منـذ البعثة وحتى توفى رسول اللـه، صلى الله عليه وسلم، قد خرّج للعالم – وليس للعرب أو لجزيـرتهم – قادة عظاما في كل مجال من مجالات " صنـاعـة الحضـارة " إن جـاز التعبير، ولم يكن ذلك ليحـدث لـولا أن أصـول هـذه الحضارة مستمدة من فوق سبع سماوات، مـن لدن حكيم خبير، وقد أتى منهجها " من عنـد الله – جلت قـدرتـه – على شكل كتـاب فصّلت آياتـه، لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقـام على تنفيذ هذا الكتاب معلم هـو أسمى البشر جميعاً، صلى اللـه عليه وسلم، وكـان لابد، والحال هـذه، أن يكون الخريجون . . خـريجو مدرسـة

الإسلام العظمى، أو جامعته الرائعة على مستوى " المنهج " الذي أنزل إليهم، وعلى مستوى " المعلم " الذي علمهم الكتاب والحكمة . . فكان الصحابة العظام الذين أذهلوا العالم في كل مجالٍ من مجالات الحياة البشرية، والذين سوف يظل العالم كله يتحدث عنهم، ويدرس إنجازاتهم إلى أن تقوم الساعة .

أذكر عبارات قلتها في كتاب لي عن " التربية والتنمية في الإسلام " وكنت أتحدث عن " المخرجات التربوية " لجامعة الإسلام العظمى، لعل الاقتباس منها هنا يفيد، خاصة ونحن نتحدث عن " حضارة الإسلام " ومكانة المرأة التي تبوأتها فيها جزء أساسي منها، أي من هذه الحضارة، قلت :

" وإذا كان بعضنا يفخر بأنه قد تخرج من بعض الجامعات ذات السمعة العلمية العالمية المشهورة، وإذا كانت الأعمال تقاس - دائماً - بنتائجها، فلا نتصور أن هناك جامعات وقفت، أو يمكن لها أن تقف، في مقارنة علمية موضوعية، أمام جامعة الإسلام العظمى، تلك الجامعة التي نزل منهجها من فوق سبع سماوات، من لدن حكيم خبير، ونفذها خير الخلق أجمعين، صلى الله عليه وسلم : **﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾** . (آل عمران / ١٦٤) .

وفي نطاق علمنا المحدود بمناهج المدارس والجامعات عندنا، وعند غيرنا، لا نعتقد أن هناك واحدة من هذه الجامعات أو المدارس يمكن أن تعلّم من التحق بها . . الحكمة . . بكل ما تعنيه من أمور الدين . . والدنيا . . معاً . . !!

إننا نسمع عن الحكماء . . عبر التاريخ . . في شعوب العالم المختلفة، باعتبارهم عملة نادرة، لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلاً، وقد تمر أجيال بأكملها لا يولد فيها واحد من هؤلاء الحكماء . . ولكن أن تكون هناك مدرسة أو جامعة تخرج هؤلاء

الحكماء فهذا هـو الجديد . . وهـو المعجز، والذي لا يمكـن أن يتحقق إلا من خلال مـدرسـة الإسلام العظمى، ولـذا فلم يكن غـريبـاً أن يحفل الجيل الأول . . والـرعيل الممتـاز من صحابـة الـرسول، صلى اللـه عليـه وسلم، بـالحكماء الذين تخرجـوا من جـامعـة الإسـلام الـرائعـة والمتميـزة، في كل مجال، في العلم وبحـوره الـواسعـة والعميقـة . . وعلى ابن أبي طالب، رضي اللـه عنـه، نموذج لا يـدانى لهؤلاء الحكماء الـذين تعلموا العلم وشربـوه على يد خير الأنـام، صلى الله عليـه وسلم، ومن ورائه طابـور طويل من رواة الأحاديث، وحفـاظ القرآن الكـريم، والمفسرين الذين لم يجد الزمان بمثلهم، والفقهاء العظام الذين يندر وجودهم في أية أمة بهذه الكثرة الهائلة .

وفي مجال الحكمـة . . والحصـافـة . . وبعـد النظـر والثبـات في الأمـر حين تهب العواصف، وتـدلهم الخطوب، وحين تحتاج الأمة لحكيـم يقبض بيدٍ قوية ثـابتة على دفة المركـب، ويسيّرها وسط العـواصف العاتيـة، وبين بحار الظلمات الرهيبـة، هل هناك من جامعة استطـاعت أن تخرج حكيماً مثل " أبي بكر "، رضي الله عنه، ذلك الصحابي الـرائع، صاحب الفكر الثـاقب والنظر البعيد الـذي أنقذ الأمة الإسـلامية الوليـدة من أخطر مـا واجهها، بعـد وفاة صاحب الـرسالـة، وغيابـه تحت الثرى . . صلى الله عليه وسلم . . ؟؟

وهل هناك جـامعة، في أي مكان في الـدنيا، يمكنها أن تـأمل من جيل بأكمله، من خـريجيها، أن يقـودوا أمـة بأكملها، وأن يسـوسـوا أمورهـا، في سيـاسة داخليـة وخارجية، في سلم وفي حرب، في رعاية مصـالحها الاقتصادية، وفي السهر على حل مشكلاتها الاجتماعية، في نشر عـدل ندر أن جاد الزمـان بمثله، وفي حسم مع الولاة والأمراء قبل الأفـراد العاديين، وفي إنشاء دواويـن، وفي رعاية أرامل وأيتـام، في بكاء بالليل خشية الـرحمن، وفي تعب وكد بالنهار، حـرصاً على مصالح المسلمين . . . كما كان يفعل عمر بن الخطاب . . . الفاروق . . . رضي الله عنه . . ؟؟

وأصحاب الأمثلة التي يمكن أن يتوقف عندها الإنسان، وهو يحاول أن يحصي عظماء الرجال، من الصحابة الأطهار، الذين تربّوا على يدي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، قد لا يمكن حصرهم وعدهم وتصنيفهم. . . كل في مجاله الذي أبدع فيه وبرع، ولكن يكفي أنهم غيروا وجه الحياة، في جزيرة العرب، ثم انتقلوا بهذا التغيير إلى الامبراطوريات التي كانت معروفة آنذاك، فغيروها هي الأخرى، وكانت كتائبهم مكونة من المجاهدين المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله، ليشتروا بها الحياة الآخرة، وكان على رأس هذه الكتائب والجيوش قادة عظماء، تخرجوا من جامعة الإسلام العظمى، وتربوا على يد أعظم قائد ومعلم، فكان الرجل منهم، في حد ذاته. . جيشاً. . في قلبه وبأسه وشجاعته وقوته. . وبراعة حيلته، والذين يريدون معرفة هذه النوعية من الخريجين العسكريين لهذه الجامعة الأم عليهم أن يقرأوا عبقرية خالد بن الوليد، وبراعة سعد بن أبي وقاص، وشجاعة الزبير بن العوام، وحماسة أسامة بن زيد. . القائد الشاب، بل القائد الذي كان في مستهل الشباب.[1]

ولكن لماذا هذا الحديث عن "جامعة الإسلام" في هذا المجال، مجال مكانة المرأة في الإسلام، وبالذات بعد أن استعرضنا حضارات الشعوب والأمم المختلفة عبر العصور. . ؟؟ لعلي أبين ذلك في السطور التالية.

تقول دراسة حديثة عن "اليونيسكو": "وفي محاولة لتفهم وتفسير مركز المرأة في العالم" يتبع علماء الاجتماع، واحداً من بين عدة مناهج نظرية، وقد استخدمت هذه المناهج ذاتها لإيضاح مركز المرأة على الصعيد العالمي ودورها في عملية الإنماء ذي الصلة بالموضوع، إذ أنه ليس ثمة شك في أن مركز المرأة هو أدنى من مركز الرجل

---

(١) محمد عبد العليم مرسي: التربية والتنمية. . في الإسلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ص ص ٢١-٢٣.

في كل مكان، وإلا ماغـدت المرأة هدفاً محدداً للمشاريع الإنمائيـة، ونقطة التركيز في المؤتمرات الدوليـة، من أمثال " المؤتمر العالمي للعـام الدولي للمرأة " الـذي انعقد في مـدينـة "مكسيكـو سيتي" عـام ١٩٧٥م، وقـد كـان الهدف المعلن لهذا المؤتمر هـو "إرجاع المرأة في عملية الإنماء بوصفهـا الشريك المادي للرجل. . وبقدر ما نعلم فلم يعلن أحد بعد عن عام دولي للرجل" . . !!(١)

وإذن فهـذه هي هيئـة عـالميـة كبرى " اليـونيسكـو" تعلن، قـرب نهايـة القـرن العشرين، أن "مكـانة المرأة **Woman Status**" لازالت متـدنية بـالنسبة للـرجل، وأنها بطبيعـة الحال لا تساويـه، وتقول الـوثيقة السـابقة نفسهـا إن الجهل بالأحـوال الحقيقية للمـرأة لا ينحصر في المنطقة العـربية، ولا يقتصر عليها، بـل إنه ينطبق على الصعيد العـالمي، وهو ينبع إلى حد ما من الاتجاه العـام الذي ساد حتى مدة قـريبة، والـذي لا يرى أهميـة لأدوار المرأة، بل يعتبر هذه الأدوار، في أحسن الأحـوال، أدواراً هامشية. (٢)

هـذه – إذن – هي القضية، فعلى مستـوى العالم، لازالـت مكانـة المرأة متدنيـة، ولازالت هامشيـة، باعتراف اليـونيسكو. وإذا قمنا معـاً نربط الماضي بـالحاضر، منذ عصور ما قبل التاريخ، منذ الإنسـان البدائي وعبر حضارات الشعوب المختلفة التي سبق ومررنا عليهـا. . وحتى يومنا هذا، ونحن على مشارف القـرن الواحد والعشرين لـوجدنـا أن مكانـة المرأة كانـت في معظم الأحوال، متـدنية ومهمشـة، اللهم إلا في حضارة واحدة فقط هي الحضارة الإسلامية . . دون ادعاء. . . فلماذا. . ؟؟

الإجابة سهلة وبسيطة وميسرة، ولا تحتاج لكثير من الفلسفة، أو إعمال الفكر. إن

---

(١) اليونسكـو، الدراسـات الاجتماعية عـن المرأة في العالم العـربي، المؤسسة العـربية للـدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤م، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ص٨.

كل الحضارات السابقة على الإسلام، واللاحقة به بعد ذلك، هي حضارات من صنع البشر، في أصولها وجذورها، ولذا أتت وفيها قصور هؤلاء البشر، ثم إن الذين كتبوا القوانين أو سنّوا اللوائح الخاصة بالمرأة وبمكانتها، كانوا جميعاً، وبلا استثناء.. من الرجال، وما كان يمكن لهؤلاء الرجال أن يعطوا المرأة حقوقاً مثل حقوقهم، ولا أن يجعلوها تتبوأ مكانة مساوية لمكانتهم، لأنهم يريدونها فقط لاستمتاعهم..هم، وللتسرية عنهم.. هم، ولخدمة أغراضهم.. هم، ولعل مراجعة الصفحات السابقة تبين هذا وتؤكده، حتى في جزيرة العرب التي كان بعض أفرادها من الغلظة وقسوة القلب بحيث كانوا يقومون بوأد بناتهم، أي دفنهن أحياء في التراب، وقد قال فيهم الحق تبارك وتعالى: ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون**﴾. (النحل/ ٥٨-٥٩). ولكن ماذا حدث في شبه جزيرة العرب تلك بحيث تغيرت تماماً صورة المرأة في الحضارة الإسلامية، وبحيث تبوأت مكانة - بالإسلام - لم تُسبق قبل ذلك في التاريخ الإنساني، وهي لم تُلحق، دون مبالغة أو ادعاء، حتى يومنا الراهن، في أي مكانٍ على خريطة الكرة الأرضية، حتى عند الشعوب المتقدمة في أمور وشؤون الحضارة المادية..؟

ما حدث أجابنا عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في كلمات قلائل، لخصت القضية، أي قضية "مكانة المرأة في الإسلام" قال رضي الله عنه: "**والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد النساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم**". (١) والذين تعمقوا دراسة شخصية عمر بن الخطاب يعرفون أنه كان يعني كل لفظ يقوله، وأكاد أقول كل حرف، فلقد كان أديباً ذواقة، وكان حساساً لكل كلمة بقولها

(١) سعيد الأفغاني: الإسلام والمرأة، مطبعة الترقي، دمشق، (بدون تاريخ)، ص٢٤.

ويكفي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، والـذي لا ينطق عن الهوى، قد امتدحه في أكثر من مناسبة، كما يقول العقاد رحمه الله. " ومن قوله في بعض ما نقل عنه، عليه السلام " لو كان بعدي نبي لكان عمـر بن الخطاب "، وقوله: " إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبـه " . . وقوله: " عمر بن الخطـاب معي حيث أحب. وأنا معه حيث أحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان " . (١)

ونرجع إلى عبارة عمر، رضي الله عنه، والتي لخص فيها مكانة المرأة في الإسلام: " والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد النسـاء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم " . . .

" ما نعد النساء أمراً " . . . هذا هو كـلام الجاهلية . . على لسان من كان شديداً في الجاهلية، جبـاراً على الإسلام والمسلمين، النساء عنده، وعنـد غيره - في الجاهلية - لا حساب لهن، ولا اعتبار، ولا مكانة . . . بل هنّ . . . لا شيء، بكل البساطة، والصراحة، والـوضوح التي امتاز بها العـربي ابن الصحراء، والذي كـان عمر، رضي الله عنه، خير معبرٍّ عنها . . وخير ناطق.

ثم ماذا . . . ؟؟

أنزل الله في النساء ما أنزل . . .

انتهى الأمر إذن . . ولا دخل للبشر فيه . . . !!

إنه أمر الله، عـز وجل، فهو واجب النفاذ على الجميع، وتلك هي قسمة المولى، جلت قـدرتـه، ولا يمكن لإنسـان مسلم . . مـؤمن . . إلا أن يسلّـم بما قضى اللـه ورسولـه، حسب نص القرآن العظيم، حتى ولو كان أمـر الله في نفس ذلك المؤمن، وفي أخص خصوصيـاته، يقول الحق تبـارك وتعالى: ﴿وما كان لمؤمـن ولا مؤمنة إذا

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، المكتبة العصرية، بيروت ـ صيدا، (بدون تاريخ)، ص١٥٤.

قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾. (الأحزاب/ ٣٦).

وسلّم المسلمون بما أمر الله، فتغيرت مكانة المرأة - بالإسلام - من النقيض إلى النقيض، فأصبحت " شقائق الرجال "، كما أخبر بذلك سيد الخلق أجمعين، وصار ذلك في سلوكيات المسلمين جميعهم لما رأوا نبي الرحمة وهو يعامل النساء بمنتهى الرقة والرحمة، بل والرأفة والعطف حتى وإن كن غير مسلمات، لأن العاطفة عند النساء جياشة فياضة، وحساسيتهن زائدة يقول العقاد " وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه الصلاة والسلام في معاملة جميع الناس، ولاسيما النساء اللاتي تتكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقوياء، ولهذا خيّر صفية الإسرائيلية، سيدة بني قريظة، بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها، ، فاختارت الزواج منه، عليه الصلاة والسلام.

وآية الآيات في رعاية الشعور الإنساني أنه عليه الصلاة والسلام أنّب صفيَّه بلالا لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود، فقال له مغضباً: أنزعت الرحمة من قلبك حتى تمر بالمرأتين على قتلاهما "؟.. واحتقرتها زينب، إحدى زوجات الرسول، صلى الله عليه وسلم، فلقبتها يوماً باليهودية، فهجرها شهراً، لا يكلمها، ليأخذ بناصر هذه الغريبة، ويدفع عنها الضيم ". (١)

وانساحت هذه الروح العظيمة من المودة.. والمعزة.. والإكبار.. والرحمة.. والتقدير.. من روح المعلم الأسمى، صلى الله عليه وسلم، ومن سلوكياته العملية، ودروسه التربوية، انساحت في نفوس أصحابه، صلى الله عليه وسلم، في كل يوم مر في حياة المسلمين، وفي كل موقف اعترض حياتهم، بحيث صارت جزءاً من شخصياتهم في تعاملهم مع المرأة.

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م، ص١٦.

وعلى الطرف الآخر تغيرت شخصية المرأة المسلمة بتغير مكانتها في مجتمع المسلمين الجديد، بعد إقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة، فعرفت حقوقها، وأدت ما عليها من واجبات، وصارت تشعر أنها - فعلاً - نصف الأمة، ونصف المجتمع، وظلل ذلك كله عبادة لله، وخشوع وخضوع لأحكامه، فازدادت مكانتها ترسخاً في قلوب المسلمين، وأصبحت وهي في موضع لم تعرفه المرأة من قبل في جميع حضارات الدنيا.

obeikandl.com